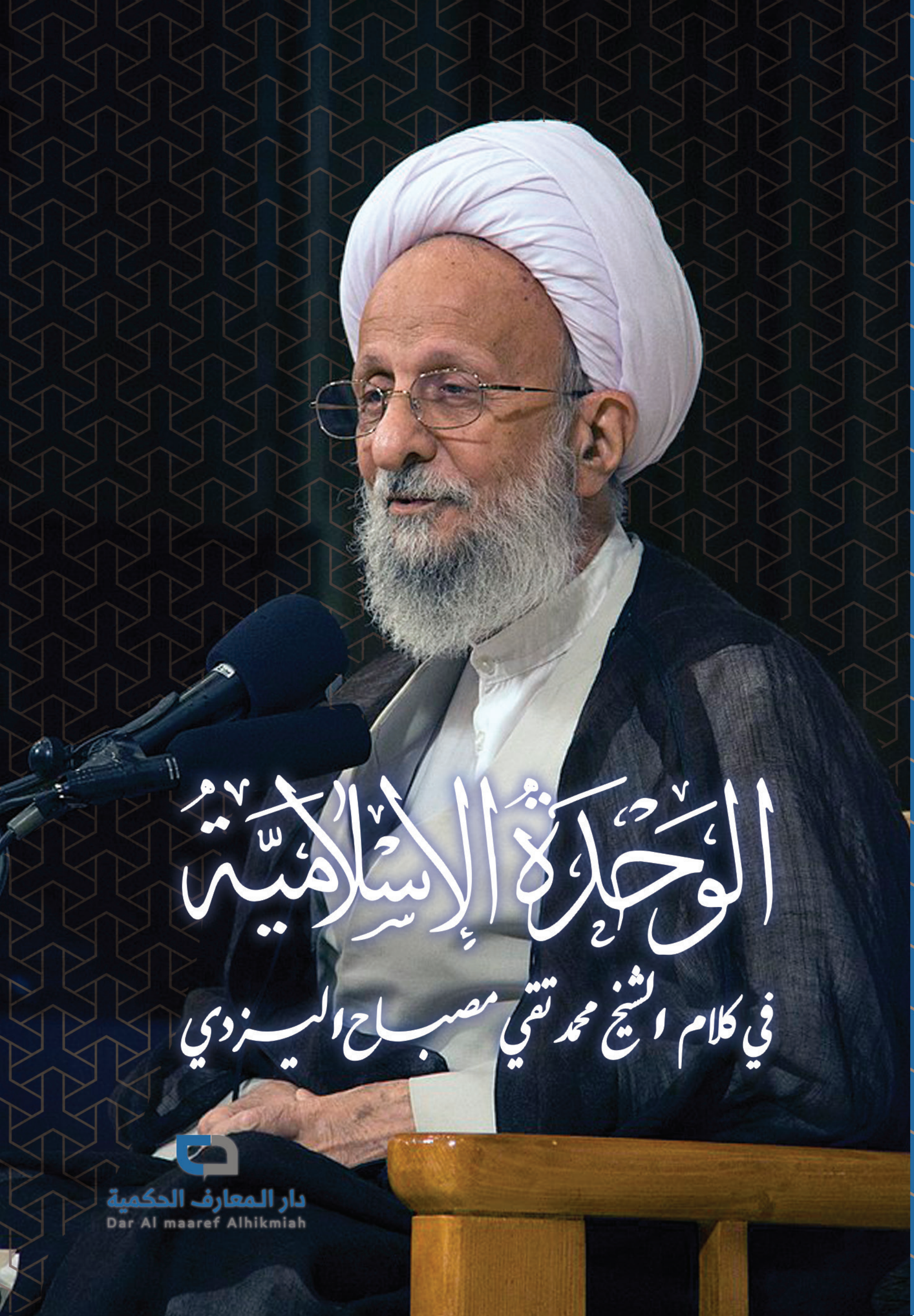

الوحدة الإسلامية
في كلام الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي
دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah



الوحدة الإسلامية

في كلام الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

الطبعة الأولى

[٢٠٢٠م.١٤٤٢هـ]



العنوان: لبنان. بيروت. سان تيريز. سنتر يحفوفي. بلوك c ـ ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١. mail: almaarf@shurouk.org

تصميم وإخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة:



07762001 ـ 70743117
dpidigitalprint2020@gmail.com



الوحدة الإسلامية

في كلام الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي


بسم الله الرحمن الرحيم



المعنى الحقيقي للوحدة بديهي ولا يشوبه أيّ إبهام. ولو كان المراد من إيجاد الوحدة هُنا أن يصبح جميع الناس إنسانًا واحدًا، بمعنى عدم وجود أيّ تعدّد بينهم، فإنّه لا يخفى على أحدٍ أنّ هذا الأمر مُحال. فالفردان من الإنسان هما موجودان منفصلان، ولا يمكن أن يصبحا موجودًا واحدًا. وعليه، فمن غير الممكن أن تتحقّق الوحدة الحقيقيّة بين جميع أفراد المجتمع.



بل إنّ الذي يقع محلًّا للبحث هو أنّنا كأناسٍ كُثر نعيش في مجتمع واحد، ولكلّ منّا وجود مستقل عن غيره، إلى أيّ حدّ ينبغي أن نسعى للتوجّه نحو الوحدة مع كلّ هذه الاختلافات الموجودة بيننا؟

إذن، فالمراد من إيجاد الوحدة هنا ليس الوحدة الحقيقيّة الفلسفيّة، بل المراد أن نتعرّف على المِلاكات المشتركة بيننا، وأن نعمل على تقوية هذه المِلاكات المشتركة وتضعيف ما من شأنه أن يبعث على تفرّقنا والتقليل منه.



إنّ هذه الوحدة تعني نبذ الاختلاف، فعندما ندعوا إلى تحقيق الوحدة فهذا يعني أنّنا نريد وضع خلافاتنا جانبًا.

إذن، يجب - في الواقع - أن نقيس مفهومَي «الوحدة» و«الاختلاف» بعضهما ببعض، وأن نعرض كلًّا منهما على الآخر.



الاختلاف معناه أن لا يكون بين الشيئين تماثلٌ، فعندما نجد أنّ أحد شيئين ليس مثل الآخر نقول: «إنّ بينهما اختلافًا».

إذن، فليس معنى الاختلاف «الحروب» و«النزاعات».

فمن قال أنّ وجود الاختلاف أمر سيّئ؟ أوَهل وجود الفروقات التكوينيّة بين أيّ موجودَين يُعدّ أمرًا سيّئًا؟ بل إنّنا نسأل: «لو لم يكن هناك اختلاف بين الموجودات، هل كان ليوجدَ عالَمٌ من الأساس؟»، فلو لم يكن ثمّة اختلافات تكوينيّة لما استطاع الإنسان أن يعيش أصلًا، ولما تشكّل المجتمع الإنساني من أساسه. فأساس هذا العالم مبنيٌّ على الاختلاف، ولو لم يكن في البين اختلافات تكوينيّة لما تحقّق هذا العالم.



وثمّة نوع آخر من الاختلاف، يكون لاختيار الأفراد دور في تحقّقه في الجملة. ومثاله البارز يظهر في اختلاف استفادة أفراد الإنسان من المواهب الطبيعيّة في هذا العالم، والذي ينتج عنه أن يصبح بعضهم غنيًّا وبعضهم الآخر فقيرًا.

ولو غضّينا الطرف عن المسائل القيميّة الأخرى لأمكننا أن نسأل: «هل إنّ نفسَ اختلاف قدرات البشر، وكون هذا الاختلاف منشأً لظهور منافع اختياريّة واكتسابيّة جديدة من عالم الطبيعة، هو أمرٌ حسن أم سيّئ؟».

بالطبع إنّ إرادة الأفراد وأفعالهم مؤثّرة أيضًا في حصول هذه المنافع، ولكنّ منشأ هذه الاختلافات الطبيعيّة هو الخلقة.



ويبرز أيضًا نوعٌ آخر من الاختلافات، والذي يكون سهم الاختيار الإنساني فيه أكبر.

وهذا النوع من الاختلافات يرتبط بالهدف النهائي من الخلقة أي مسألة عبادة الله وطاعته سبحانه وتعالى.

وهنا تحديدًا تُطرح مسألة «الدين».

وليست الاختلافات هنا بالتكوينيّة الجبريّة، فإنّ الإنسان عندما يأتي إلى الدنيا لا يولد ابتداءً وهو متديّن بدينٍ خاصٍ بنحوٍ جبري. بل إنّ اختيار الدين والمنهج مرتبط باختيار الإنسان وإرادته.

وهنا توجد الكثير من العوامل المؤثّرة والمعادلات الصعبة والدقيقة.





أحيانًا تكون الاختلافات بنحوٍ يرجع إلى تلك القيم الواقعيّة التي يؤكّد عليها الدين.

يقول الأنبياء عليهم السلام: «إنّكم إن سلكتم هذا الصراط والتزمتم بهذا المسلك فسوف تنالون السعادة الأبديّة، أمّا إن اخترتم النقيض - أي ما يقابل هذا المسلك - فستنالون الشقاء الأبدي!».

إذن المقام هنا ليس مقام أذواق، بل إنّ المسألة في غاية الجدّ.

هنا لا يمكن أن يُقال: «ليس هذا بالأمر المهم، فليعمل كلّ فرد بذوقه وسليقته!» إذ إنّ عقل الإنسان لا يجوّز له أن يكون غير مبالٍ في مقابل هذا الاحتمال - مهما كان ضعيفًا - لأنّ المُحتمل في غاية القوّة.



أمّا لو كان محور الاختلاف تحديد مصداق كلام الأنبياء عليهم السلام، بمعنى أنّ البعض يدّعي كون منهجه هو مصداق كلام الأنبياء، بينما يدّعي الطرف المقابل ذلك أيضًا، فالقاعدة الأولى هنا تقضي باتّباع المنطق والاستدلال العقلي في تحديد المصداق الحقيقي.

ذلك لأنّنا على اعتقاد بأنّ ما جاء به الأنبياء قد أتمّ الحجّة على جميع بني البشر، ولكن مع ذلك من الممكن أن تعمد الشياطين إلى تعكير صفو هذا الماء وإثارة التشويش والبلبلة، فتنتشر الشبهات والبدع مع مرور الزمان ممّا يبعث على اشتباه البشر في تحديد الطريق الموصل إلى المقصد.



هذا وإنّ البعض يُقدم عمدًا على إيجاد الاختلافات كي يُنشئ لنفسه دكّانًا خاصًّا. فيقول: «إنّ مقصد النبي الفلاني كان كذا وكذا». وكلّ هذا بغية أن يؤسّس فرقةً خاصّةً به وينصّب نفسه رئيسًا عليها فيستغلّ الآخرين لتحقيق مآربه!

وبعد أن تظهر هذه الاختلافات تجد الأجيالُ القادمة نفسها مع مرور الزمن أمام ظروف يصعب فيها كثيراً تشخيص الحق. فما الذي ينبغي فعله في مثل هذه الظروف؟

هنا يحكم العقل أنّ الطريق الأمثل يكمن في أن يجلس المختلفون معًا ويعقدوا جلسات البحث العقلاني فيما بينهم كي يُعلم أيّ الأدلّة هو الصحيح وأيّها هو الخاطئ.



نسأل الله تعالى أن لا يكون هذا العناد واللجاج موجودًا فينا، ولكن في جميع الأحوال ينبغي أن نستعيذ بالله من أن نقف يومًا في وجه الحق.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وإنّنا لو استطعنا أن نغيّر هذه الخصلة الشيطانيّة في أنفسنا في أيّام شبابنا، وأن نمرّن أنفسنا على اتّباع الحقّ على الدوام، وأن نعترف بخطئنا عندما ندرك أنّنا وقعنا في خطأ ما، فوالله لن يصيبنا من ذلك أيّ ضرر.

---

[١] سورة القصص، الآية ٨٣.



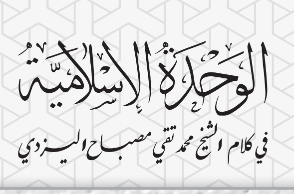
إنّ الطريق الصحيح والمنطقي في مثل هذه الاختلافات هو أن نسعى إلى تعريف الطرف المقابل على الحقيقة باتّباع الدليل والمنطق واعتماد الأسلوب الذي لا يثير تعصّباته.

فهو إنسان أيضًا، وإنّنا كبشر إنّما نتقبّل أخطاءنا عندما ينبّهنا الآخرون عليها بلسانٍ منطقي ملائم، أمّا لو بدأوا حديثهم معنا بحدّة ومناكفة بل وتوهين وإساءة، فإنّنا بطبيعة الحال سوف نتصدّى لهم ونواجههم.

لذا، إذا تحدّثنا إلى الناس ببيانٍ منطقي وأسلوب صحيح، فإنّ كثيراً من الاختلافات سوف تزول.



قال آية الله الشيخ بهجت (رضوان الله عليه) في إحدى المناسبات: «إنّه لمن غير الصحيح أن نبدأ حوارنا مع شخصٍ سنّي المذهب بطرح المسائل التي توجب انزعاجه بحدّة وشدّة».

أمّا في مقابل المعاندين أو الذين وقعوا بشدّة تحت تأثيرهم إلى درجة أنّهم باتوا على يقين بحقّانيّة مذهبهم وبطلان مذهب الشيعة، فما هي وظيفتنا؟

إنّنا إن قصّرنا في بيان الحق وإثبات بطلان مذاهب الباطل، نكون قد وجّهنا خيانةً كبيرة إلى الله تعالى ونبيّه الكريم ﷺ والإنسانيّة والشهداء ولمن مضى ولمن سيأتي. وفي هذه الصورة نصبح عمليًّا من الشياطين الذي يسدّون طريق الحق أمام البشر.



أصل مسألة حفظ الوحدة يكمن هنا، فإنّنا إن تعاملنا مع الآخرين بمُناكفة وحدّة وعصبيّة فما هي النتيجة التي سوف نصل إليها؟

إنّ نتيجة هذا الأسلوب ليست سوى ازدياد عناد أولئك المعاندين، وإعطاء ذريعة للّذين اتّبعوا الباطل عن جهلٍ كي يُعرضوا عنّا ويقولوا: «لو كانوا من أهل الحق لما لجأوا إلى الفحش والبذاءة، بل لكانوا بيّنوا مسائلهم الحقّة بالدليل والمنطق».

نعم، إنّ اتّباع مثل هذا الأسلوب يبعث على أن يحسبنا الآخرون من أهل الباطل.



إذن، التعامل بعصبيّة، بمعنى إظهار المسائل من دون ذكر الدليل واتّباع أسلوب ملؤه التشاحن والتوهين، إن لم يعط نتيجة معكوسة، فهو على الأقل لن يوصل إلى النتيجة المطلوبة.

إنّ الكلام المنطقي هو الذي يعود بالنتيجة المطلوبة، فيجب عدم منع الحوارات المنطقيّة. بل ولا يوجد دليل منطقي على الردع عن الكلام المنطقي!

أمّا التعامل بتشاحن وتعصّب وخصومة وضغائن، فلا الدليل العقلي يؤيّده ولا الشرع يرضى به.



إنّ من أكبر الخدمات التي قُدّمت في القرن الأخير من أجل إحياء مذهب الشيعة وإثبات حقّانيّته ما قام به المرحوم صاحب **عقبات الأنوار** في الهند والعلّامة الأميني في النجف بتدوينه لكتاب **الغدير**.

فما أعظم هذه الخدمات التي قدّمها هذان العالمان الكبيران! وما أجلّ هذه التضحيات التي بذلوها! وكم بذلوا من جهود وشحذوا من همم كي يؤلّفوا هذَين الأثرَين العظيمَين!

وأيّ عشقٍ هذا الذي كان يحمله العلّامة الأميني لأهل البيت صلوات الله عليهم وأمير المؤمنين عليه السلام، حتّى كانت تجري الدموع من عينيه إذا سمع باسم أمير المؤمنين!

ومع كلّ ذلك لم نره في كتابه - ولو في مورد واحد -

يسيء إلى أيّ رمزٍ من الرموز المحترمة عند أهل السنّة، بل كان دائمًا ما يورد إلى جانب أسمائهم عبارة «رضي الله عنه».

فباتّباع هذا الأسلوب، يكون المرء قد بيّن الحقيقة من جهةٍ أولى، ولم يعط مُستمسكًا للمخالف كي يُعرض عنه. وحينئذٍ إذا كان الطرف المقابل طالبًا للحقيقة فإنّه سيُذعن للحقّ ويتقبّله.



وإن كان الهدف من الوحدة أن يتحقّق الحقّ، فبمقدار ما لهذا الحقّ من قيمة يكون لحفظ الوحدة قيمة أيضًا. وعلى العكس، فإن كانت الوحدة في سبيل إبطال الحقّ وتحقيق الباطل، فإنّها ليست فقط فاقدة للقيمة، بل إنّ قيمتها تكون سلبيّة بقدر ما لذلك الباطل من قيمة سلبيّة.



إنّ من أنواع التقيّة الموجودة عندنا، والتي كثيراً ما كان الإمام الخميني قدس سره يؤكّد عليها كما وقد أفتى بها بعض فقهائنا الآخرين، هي «التقيّة المداراتيّة».

وموردها عندما يكون الإنسان أمام واقع أنه إذا أراد أن يعمل طبق فتوى مذهبه فإنّه لا يتعرّض للخطر على الإطلاق، ولكن تتعرّض مصلحة اجتماعيّة اسلاميّة للخطر، كأن تسود الفرقة والعداوة والافتراء والكدورة بين المسلمين، ممّا يؤدّي إلى أن يُسيء الأعداء الاستفادة من هذا الأمر فتزول عزّة المجتمع الإسلامي وتتضرّر مصالحه.



لا ينبغي أن نتصوّر أنّ الوحدة بحدّ ذاتها قيمة مطلقة! وأن الاتّحاد ينبغي حفظه بأيّ ثمن وأيّ ظرف!

ومن هنا يُعلم أنّه لا قيمة أبدًا للوحدة مع الأشخاص الذين سلكوا طريق الباطل واتّبعوا سبيل المواجهة السياسيّة، وعندما ظهرت هزيمتهم وبان ضعفهم بدأوا يدعون إلى الوحدة كي يحفظوا وجودهم ويقوّوا أنفسهم!

فهؤلاء يقولون لنا: «إذا أردتم حفظ الوحدة فعليكم أن تتّبعونا! ولأنّ الوحدة أصل ينبغي التمسّك به، ونحن لن نصبح تابعين لكم، فمن أجل حفظ الوحدة يجب أن تتّبعونا».

فأيّ قيمة لمثل هذه الوحدة؟!



والآن ماذا عسانا أن نفعل في الموارد التي يُشخّص فيها أنّ المصلحة الأقوى تكمن في حفظ الوحدة؟

هنا لا بدّ من تغيير بعض السلوكيّات. وإنّ ما يلزم علينا الالتفات إليه هو أنّ سلوكيّاتنا الاجتماعيّة ينبغي أن لا تكون بنحوٍ يؤلّب سائر الفرق الإسلاميّة على الشيعة أو يجعل نظرتهم تجاههم سيّئة أو يزيد من ضغينتهم وعداوتهم لهم.

وينبغي أن لا نقوم بسلوكيّات من شأنها أن تعرّض أرواح بعض الشيعة للخطر، وأن لا نقوم بفعلٍ أو نتلفّظ بقولٍ يهيّج مشاعر الفرق الأخرى، وعند اللزوم يلزم أن نعمل على طبق فتواهم في المسائل الفقهيّة.



وهنا يمكن أن يُطرح سؤال آخر، وهو أنّه هل المراد من التقيّة والاحتراز عن إثارة مشاعر الآخرين أن نمتنع عن التحقيق والبحث العلمي؟؟

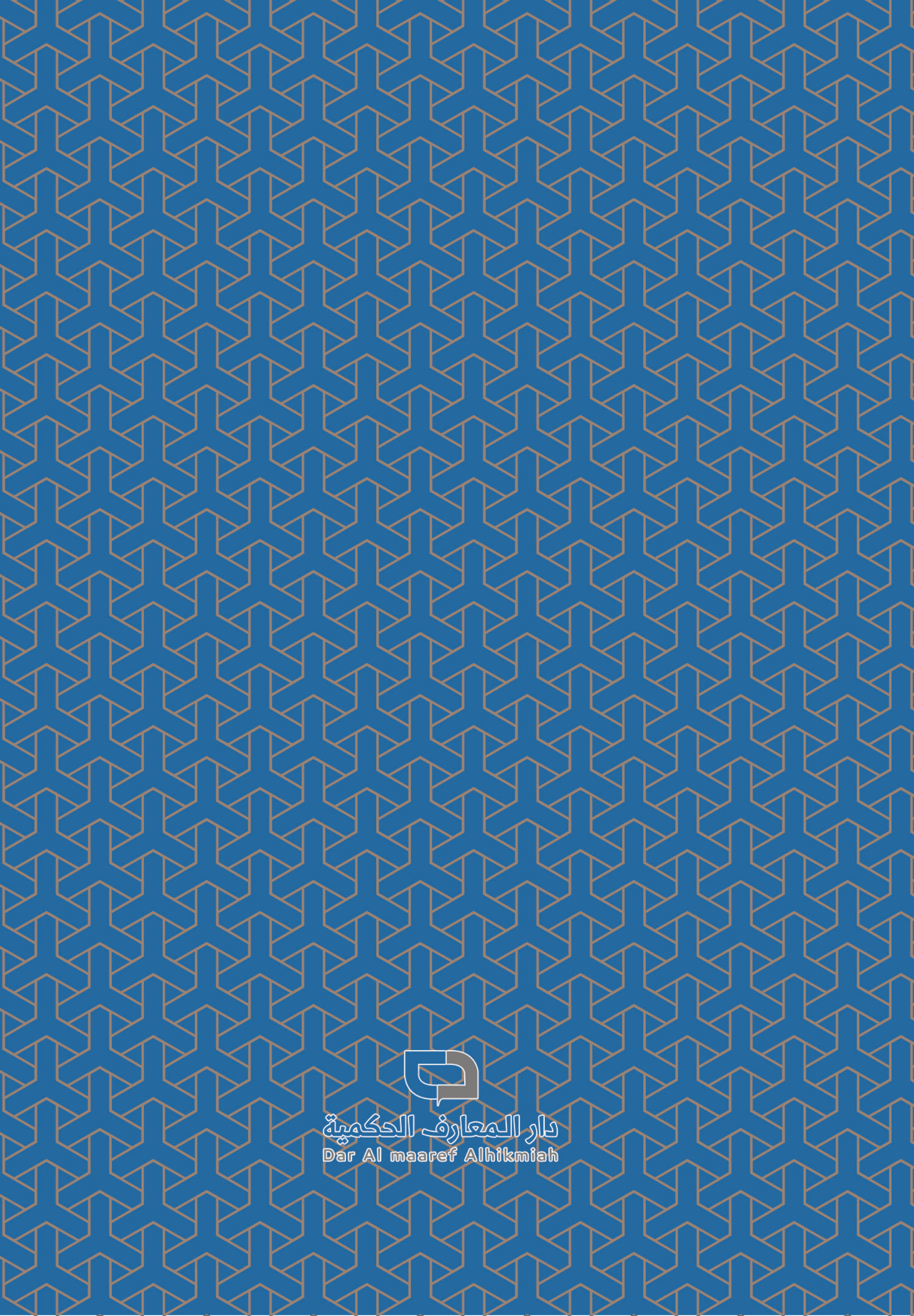
والجواب هو أنّ مثل هذا الأمر غير مقبول عند العقلاء. نعم، هذا مقبول عند الصهاينة، فهم عملوا على إقرار قانون في عدّة دول أوروبيّة يمنع التشكيك في قضيّة «الهولوكاست» بل ويعتبره جُرمًا. وإذا قال شخصٌ أنّ الألمان النازيّين لم يقوموا بالإبادة الجماعيّة أو شكّك في هذا الحادثة، فإنّه يُعاقب!

لذلك إذا قال أحدٌ ما أنّ التحقيق والبحث في مسألة حقّانيّة الشيعة جرمٌ، فإنّ هذا توجّهٌ صهيوني! بل لا يُمنع التحقيق في أيّ مذهبٍ أو ملّة. فالعاقل هو من تكون ضالّته معرفة الحقّ والباطل كي يتّبع الحقّ ويردّ الباطل.

وبناءً على ما تقدّم تقع على عاتقنا وظيفتان:

الوظيفة الأولى وظيفة علميّة، وهي السعي في إثبات حقّانيّة مباني الشيعة في الفضاء العلمي والبحثي. ذلك لأنّنا على اعتقاد بأنّ التشيّع هو الإسلام الحقيقي، وأنّ ما قبله أهل البيت عليهم السلام وعملوا به هو عينه ما جاء به نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

والوظيفة الثانية وظيفة عمليّة، وهي التزيّن بالسلوك المناسب. فالإساءة وسوء الأدب وعدم الاحترام ليست أفعالًا صحيحة، بل هي أمور تُعيق بلوغنا الهدف المرجو بل تناقضه. وإنّ هذا الأسلوب هو أسلوب شيطاني، فالشيطان هو من أراه لبني البشر وأوهمهم أنّها من مصاديق الشجاعة!


دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah